ترميم النفس[1]

كثرة عدد السكان مع الجودة فضيلة عند الأمم، لكن الخطأ أن يكثر العدد بلا نفع ولا إنتاج، والإسلام يحثّ على طلب الذرية الطيبة الصالحة، ولكن إذا تحولت كثرة النسل إلى عبء اجتماعي صار هذا خطأ في التقدير، ونحن في الشرق أكثر الأمم نموًّا سكانيًّا مع ضعف في التربية والتعليم، فقد تجد عند الواحد عشرين ابنًا، لكنه أهمل تأديبهم وتعليمهم، فصار سهرهم في دبكة شعبية مع لعب البلوت وأكل الفصفص بلا إنتاج ولا عمل، بل صاروا حملًا ثقيلًا على الصرف الصحي والطرق والمطارات والمستشفيات، في حين الخواجة ينجب طفلين، فيعتني بهما، فيتخرج أحدهما طبيبًا، والآخر يهبط بمركبته على المريخ، وأنا ضد جلد الذات، لكن مادام أن الخطأ يتكرر، والعلاج يستعصي فالبيان واجب، مازال بعض العرب يرفع عقيرته عبر الشاشات، ويقول: «**أنا ابن جلا وطلاع الثنايا**»، ثم تجده في عالم الشرع لا يحفظ آية الكرسي، وفي عالم الدنيا لم يسمع بابن خلدون، وابن رشد، وتجد الغربي ساكتًا قابعًا في مصنعه، أو معمله يبحث، وينتج، ويخترع، ويبدع، أرجو من شبابنا أن يقرؤوا قصة أستاذ ثورة اليابان الصناعية «تاكيو

(١) بقلم الدكتور/ عائض القرني بتصرف.

أوساهـيرا» وهي موجودة في كتاب «**كيف أصبحوا عظماء؟**» إذ كان طالبًـا صغـيرًا ذهب للدراسة في ألمانيـا، فكان ينسلّ إلـى ورشـة قريبـة، فيعمل فيهـا خمس عشـرة ساعة على وجبـة واحدة، فلما اكتشف كيف يـدار المحرك، وأخبر الأمة اليابانيـة بذلـك استقبله عنـد عودته إلى المطـار إمبراطور اليابـان، فلما أدار المحرك، وسمع الإمبراطور هدير المحرك قال: هـذه أحسن موسيقا سمعتهـا في حياتي، وطالب عربي في المتوسطة سأله الأستـاذ: الكتاب لسيبويه مَنْ ألّفه؟ فقال الطالب: الله ورسوله أعلم، والتمدد في الأجسام على حساب العقـول مأسـاة، والافتخار بالآبـاء مع العجـز منقصة، لن يعترف بنا أحد، حتى نعمـل، وننتج، فالمجد مغالبة، والسوق مناهبـة، وإن النجاح قطرات من الآهـات والزفرات والعرق والجهد، والفشل زخّات مـن الإحباط والنوم والتسويف، كن ناجحًـا، ثم لا تبـالِ بمن نقد، أو جـرّح، أو تهكـم، إذا رأيت النـاس يرمونك بأقواس النقد فاعلـم أنك وصلت إلى بلاط المجـد، وإن مدفعية الشرف تطلـق لك إحدى وعشرين طلقة احتفاء بقدومك.

لقـد هجر كثير منّـا الكتاب، وأصبح يعيش الأمية، فلا يحفظ آيةً ولا حديثًا ولا بيتًا شعريًّا، ولم يقرأ كتابًا، ولم يطالع قصـة ولا رواية، ولكنه علّق في مجلـس بيته شجرة الأنساب؛

ليثبت لنا أنه من أسرة آل مفلس من قبيلة الجهلة، والوحي ينادي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، والتاريخ يخبرك أن بلالًا مولى حبشي، وهو مؤذن الإسلام الأول، وأن جوهر الصقلي فاتح مصر وباني الأزهر أمازيغي، أمه تبيع الجرجير في مدينة سبتة، ولكن النفس الوثّابة العظيمة لا تعتمد على عظام الموتى؛ لأن العصامي يشرّف قبيلته وأمته وشعبه، ولا ينتظر أن يشرفه الناس، لقد كان نابليون شابًّا فقيرًا، لكنه جدّ، واجتهد، حتى أخذ التاج من لويس الرابع عشر، وفتح المشرق، وصار في التاريخ أسطورة، وهو القائل: «الحرب تحتاج إلى ثلاثة: المال، ثم المال، ثم المال، والمجد يحتاج إلى ثلاثة: العمل، ثم العمل، ثم العمل».

لقد أرضينا غرورنا بمدح أنفسنا، حتى سكِرَ القلب بخمر المديح على مذهب جرير: «**أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا...**»؟ وقد ركب الآخر بساط الريح وإف ١٦ والكونكورد، ولو اجتمعنا ما أنتجنا سيارة «فولكس فاغن» فضلًا عن «كراسيدا». ورحم الله امرأ عرف تقصيره، فأصلح من نفسه، ولا بد أن تقنع المريض بمرضه؛ حتى يستطيع أن يعالج نفسه، على أني أعترف بأن عندنا عباقرة ونوابغ يحتاجون إلى مراكز بحوث ومؤسسات لرعايتهم، ومعامل ومصانع؛ لاستقبال نتاجهم.

لقد تركت اليابان الحرب، وتابت إلى الله من القتال، وتوجهت إلى العمل والإنتاج، فصارت آيةً للسائلين، وكدّس العراق قبل الغزو السلاح، واشتغل بحروبٍ مع الجيران، فانتهى قادته إلى المشنقة، وجُوِّع الشعب، ثم قُتِل وسُحِق. سوف نفتخر إذا نظر الواحد منّا إلى سيارته وثلاجته وتلفازه وهاتفه، فوجدها صناعةً محلية. وأرجو أن نقتصد في الأمسيات الشعرية؛ فإن عشرة دواوين من الشعر لا تنتج صاعًا من شعير، يقول نزار قباني:

وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا

متى البنادق كانت تسكن الكتبا؟

وقفة: علينا أن نعيد ترميم أنفسنا بالإيمان والعمل وتهذيب عقولنا بالعلم والتفكر، وهذا جوهر رسالتنا الربانية الخالدة، وطريق ذلك المسجد والمكتبة والمصنع، والخطوة الأولى مكتبة منزلية على مذهب الخليفة الناصر الأندلسي يوم ألزم الناس بإنشاء مكتبة في كل منزل وقراءة يومية مركزة، وهذا خير من مجالس الغيبة والقيل والقال وقتل الزمان بالهذيان: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

obeikandl.com